

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



قلوب بين يدي القدر

سِيرُ العشرة المبشرين بالجنة

أبو بكر — عمر — عثمان — علي — طلحة — الزبير
سعد — سعيد — عبد الرحمن بن عوف — أبو عبيدة

من صدقٍ لا يعرف التردد، إلى عدلٍ لا يعرف المحاباة

السيرة الكاملة — الطبعة الموسعة، بالآيات والأحاديث

مقدمة



بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله الذي هدى قلوباً كانت في ظلمة الجاهلية فأصبحت بنوره منارات، والصلاة والسلام على مَنْ كان سبب هذا التحول كله، وعلى آله وصحبه الذين حملوا هذا النور من بعده فأضاءوا به الدنيا شرقاً وغرباً.

أكتب هذه السطور وفي القلب خشيةٌ صادقة لا أدعي معها علماً ولا أزعم فيها فضلاً؛ فكيف يجرؤ قلمٌ ضعيف أن يقترب من سِير رجالٍ زكّاهم الله من فوق سبع سماوات، وشهد لهم نبيّه صلى الله عليه وسلم بالجنة وهم أحياء يمشون بين الناس؟ إن الحديث عنهم أمانةٌ ثقيلة، وكل حرفٍ يُكتب في حقهم يحتاج إلى ميزانٍ من الصدق والدقة لا يحتمل الزلل ولا التزيد. فإن وُفِّقْتُ إلى شيءٍ من الصواب في هذه الصفحات، فذلك من فضل الله وحده، وإن كان فيها تقصيرٌ أو خطأ، فمن نفسي والشیطان، وأستغفر الله منه، وأسأل كل قارئٍ عالم أن يصحح ما زلّ فيه القلم برفق.

ولستُ هنا لأروي تاريخاً جافاً تُحفظ فيه التواريخ وتُعدّ فيه المعارك، بل لأقترب، بقدر ما يسمح به الأدب من هذه الحرمة، من قلوب هؤلاء الرجال العشرة الذين بشرهم النبي صلى الله عليه وسلم بالجنة بأسمائهم، لأسأل السؤال الذي يشغلني منذ بدأت هذا العمل: كيف تتحول نفسٌ بشرية من القسوة إلى الرحمة؟ كيف يتحول الخوف إلى يقين، والتردد إلى ثبات، والغنى إلى زهد، والسلطة إلى أمانة تُقلق صاحبها بدل أن تُريحه؟ وكيف تلتقي عشر شخصياتٍ مختلفة كل الاختلاف في طباعها، فتتفق جميعاً على جوهرٍ واحد من الصدق والتضحية، حتى تُختم حياة أكثرهم بدمٍ يُراق في سبيل هذا الجوهر بالذات؟

عنوان هذا الكتاب، 'قلوب بين يدي القدر'، ليس مجرد عبارة أدبية أردت بها التزيين، بل هو خلاصة ما وصلت إليه بعد طول تأملٍ في هذه السِير العشر: أن هؤلاء الرجال، على عظمة ما بلغوه من إيمانٍ ومكانة، ظلوا بشراً تتقلب قلوبهم كما تتقلب قلوب سائر الناس، يخافون ويرجون، ويترددون ثم يثبتون، ويبتلون فيصبرون أو يجزعون قليلاً ثم يعودون. لم تكن عظمتهم في أنهم وُلدوا معصومين من الضعف الإنساني، بل في أنهم، حين وقفوا أمام لحظة الاختيار الحاسمة، اختاروا الله على كل شيءٍ آخر، مهما كلفهم ذلك من دمٍ أو مال أو راحة. وهذا بالذات ما يجعل سِيرهم قريبة من قلب كل قارئٍ لا بعيدة عنه: فهم لم يكونوا ملائكة، بل كانوا رجالاً، ولكنهم رجالٌ عرفوا كيف يُسلمون قلوبهم بين يدي القدر بثقةٍ لا تتزعزع.

وفي هذه الطبعة بالذات، حرصتُ أن أظهر الخيط الذي يربط سيرة هؤلاء الرجال بأصله الأول: كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم؛ فما كانت أفعالهم إلا ثمرة إيمانٍ تغذى من آياتٍ تُتلى وأحاديث تُحفظ، فأثبتتُ من ذلك في كل موضعٍ مناسب ما يُضيء الحدث ويكشف جذوره النصية، رجاء أن يخرج القارئ من هذا الكتاب وقد ازداد قرباً لا من سِير رجالٍ فحسب، بل من القرآن والسنة اللذين صنعنا هؤلاء الرجال.

أسأل الله أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه، نافعاً لمن قرأه، شافعاً لا وبالاً على كاتبه يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلبٍ سليم. وأسأله سبحانه أن يحشرنا مع هؤلاء الأخيار الذين نكتب عنهم لا لأننا بلغنا شيئاً من منازلهم، بل لأن المرء مع من أحب، وقد أحببناهم صادقين، والله من وراء القصد.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين





الباب الأول

أبو بكر الصديق

أول مَنْ آمَنَ بلا تردد، وأول خليفة حمى الدين من الانهيار



الفصل الأول

الصدق قبل الصديقية — نشأته في الجاهلية



♦ ١. النسب ومكانة الصدق المبكرة

هو عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عامر، من بني تيم، أحد بطون قريش الوسطى في المكانة، لكنه كان الأعلى بينها في شرف الخلق. وقد وُلد بعد عام الفيل بنحو ثلاث سنين، فكان أصغر من النبي صلى الله عليه وسلم بيسير، ونشأ معه في بيئة واحدة، يتنفسان هواء مكة نفسه، ويشهدان أسواقها وموسمها ومفاخراتها القبلية نفسها. ومنذ شبابه الأول، قبل أن ينزل عليه وحى يأمره بشيء، اشتهر أبو بكر بصفة نادرة الوجود في مجتمع تحكمه العصبية والغلبة والتفاخر بالقوة: الصدق المطلق الذي لا يعرف الموارد ولا نصف الحقيقة، حتى صار اسمه عند قومه مقروناً بالثقة قبل أن يُقرن بالإيمان بزمنٍ طويل.

لم يُعرف عنه أنه سجد لصنم قط بحسب بعض الروايات، ولم يشرب خمرًا في جاهليته رغم انتشارها بين سائر شباب قريش، وكان محبباً إلى الناس لسهولة خُلُقهِ، ودمت معشره، وصدق حديثه في كل تجارة يعقدها، حتى إن من عامله مرة كان يعود إليه دون سواه، ثقةً منه أن الميزان لن يُبخس ولا الكلمة ستُنقض.

كان تاجراً موسراً، خبيراً بأنساب العرب وأخبارها، حتى كان يُقصد لهذا العلم كما يُقصد أهل الفتوى لفتواهم. وهذا الجمع بين نجاح التجارة، وسعة العلم بالأنساب، ورقة الخلق، صنع من أبي بكر شخصية اجتماعية مرموقة قبل الإسلام بزمنٍ طويل؛ فحين جاءت الدعوة، لم يكن رجلاً مغموراً يبحث عن مكانة، بل رجلاً ذا وزنٍ حقيقي بين قومه، يخاطر بكل ذلك الوزن في سبيل يقين قلبي لا يملك عليه دليلاً حسيّاً واحداً سوى معرفته بصاحبه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾

سورة التوبة، الآية ١١٩ — وقد كان أبو بكر إمام الصادقين قبل أن تُنزل الآية وبعدها.

♦ ٢. الصداقة التي سبقت الرسالة

لم تكن علاقة أبي بكر بمحمد صلى الله عليه وسلم علاقة طارئة بدأت مع الدعوة، بل كانت صداقة عميقة سبقت النبوة نفسها بسنين طويلة، نشأ الرجلان في مكة قريبين في السن

والمكانة، يلتقيان في مجالس قريش وأسواقها، ويعرف كل منهما صاحبه معرفة القلب لا معرفة الظاهر فقط.

وهذه المعرفة السابقة هي ما تُفسّر أعجب مشهدٍ في تاريخ الدعوة: أن يُصدّق رجلٌ صاحبه في أعظم دعوى عرفها التاريخ البشري كله دون أن يطلب دليلاً واحداً، فيقينه لم يكن قائماً على معجزةٍ رآها، بل على معرفته العميقة بأن هذا الرجل الذي عاشه سنين لا يمكن أن يكذب.

عن النبي صلى الله عليه وسلم:

'ما نفعني مالٌ قط ما نفعني مال أبي بكر'، وبكى أبو بكر، وقال: هل أنا ومالي إلا لك يا رسول الله؟

رواه ابن ماجه والترمذي، وأصل معناه في الصحيحين من حديث المنة على أبي بكر

الفصل الثاني بلا تردد — أول الرجال إيماناً



◆ ١. 'لم تكن له كبوة'

حين عرض النبي صلى الله عليه وسلم الإسلام على أبي بكر، لم يتردد أبو بكر لحظة واحدة، ولم يطلب مهلةً للتفكير كما فعل كثيرون ممن أسلموا لاحقاً بعد تردد وتفكير ومراجعة، بل قبل الدعوة على الفور وكأنه كان ينتظرها منذ زمن طويل دون أن يدري. قال النبي صلى الله عليه وسلم عنه في وصفٍ نادر لم يُطلق على غيره من الصحابة: 'ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة، إلا أبا بكر، ما عكم عنه حين ذكرته له'.

وهذه السرعة في الإيمان ليست سذاجة أو خفة عقل كما قد يظن من ينظر إليها سطحياً، بل هي الثمرة الطبيعية لرجلٍ عاش حياته كلها يبحث عن الصدق ويتحرى الحقيقة، فلما وجدها مجسدة أمامه في هيئة صديقه الذي عرف صدقه عن قرب، لم يكن ليتردد في اتباعه.

◆ ٢. صانع الإيمان في قلوب الآخرين

لم يكتفِ أبو بكر بإيمانه الشخصي وحده، بل تحوّل فور إسلامه إلى أعظم داعية عرفته الدعوة في أيامها الأولى الحرجة؛ فعلى يديه أسلم عددٌ من كبار الصحابة الذين عُرفوا لاحقاً بالعشرة المبشرين بالجنة: عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف.

وهذا الأثر المضاعف — أن يهدي الله برجلٍ واحد نخبة الأمة الأولى — لم يكن صدفة عابرة، بل ثمرة شخصية أبي بكر التي تجمع بين الصدق المُقنع الذي لا يتكلف، وبين محبة الناس له ومعرفتهم بأنه لا يقول إلا ما يعتقد.

◆ ٣. مال يُنفق في سبيل الحرية

حين اشتد أذى قريش على ضعفاء المسلمين ومماليكهم، كان أبو بكر ينفق ماله بسخاءٍ نادر في شراء مَنْ يُعذَّب منهم وعتقهم، غير منتظرٍ من ذلك جزاءً دنيوياً. ومن أشهر من اشتراهم بلال بن

رباح، الذي كان يُلقى على الرمضاء ويقول وسط عذابه: أحدٌ أحد، فاشتراه أبو بكر وأعتقه لله وحده.

﴿وَسَيَجْزِيهَا الْأُنْتَى الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾

سورة الليل، الآيات ١٧-٢٠ — نزلت، بحسب ما روي، في أبي بكر وإعتاقه المستضعفين.

الفصل الثالث رفيق الغار — الهجرة



◆ ١. 'إن الله معنا'

حين تأمرت قريش على قتل النبي صلى الله عليه وسلم، وأذن له بالهجرة، اختاره صاحباً لرحلته الأخطر، فخرجاً معاً واختبأ في غار ثور ثلاثة أيام. ولما وقف المشركون على فم الغار يبحثون، وكانوا لو نظر أحدهم إلى قدميه لرآهما، خاف أبو بكر لا على نفسه بل على صاحبه، وقال: 'يا رسول الله، لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا'، فأجابه صلى الله عليه وسلم بثقة لا تترزعزع: 'يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟'.

﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾

سورة التوبة، الآية ٤٠ — الآية الوحيدة في القرآن التي وُصف فيها صحابيُّ بأنه 'صاحب' رسول الله بالذات.

وما يستحق التأمل العميق في هذا المشهد ليس الخوف نفسه، بل مصدره بالتحديد: لم يخف أبو بكر على روحه هو، بل على صاحبه الذي يحمل رسالة السماء.

◆ ٢. الحارس الذي لا ينام

طوال الطريق إلى المدينة، كان أبو بكر يتقدّم النبي صلى الله عليه وسلم حيناً ويتأخر عنه حيناً، حتى سأله النبي صلى الله عليه وسلم عن السبب، فقال: 'أذكر الطلب فأكون خلفك، وأذكر الرصد فأكون أمامك'. وحين وصلا إلى الغار أول مرة، لم يدخله النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يتفقده أبو بكر بيده من الهوام، وقال بكلماتٍ تختصر فلسفته في الحراسة: 'وإن كان لا بد من لدغة، فلتكن بي لا بك'.

الفصل الرابع

لقب لم يُمنح لغيره — الصديق



◆ ١. تصديق الإسراء والمعراج

حين أخبر النبي صلى الله عليه وسلم قريشاً بأنه أُسري به من مكة إلى بيت المقدس ثم عُرج به إلى السماء في ليلة واحدة، ضجت مكة بالكذب، وارتد بعض من كان قد أسلم حديثاً. فأتى بعضهم إلى أبي بكر ظانين أنهم سيهزّون يقينه، فقال دون أن يسألهم تفصيلاً: 'إن كان قال ذلك فقد صدق... إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك: أصدقه بخبر السماء في غدوة أو روحة'. فسُمي من يومها 'الصديق'.

عن النبي صلى الله عليه وسلم:

'لو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخوة الإسلام ومودته'

متفق عليه، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه

◆ ٢. في ساحات القتال

شهد أبو بكر بديراً وسائر الغزوات، وكان في بدر إلى جانب النبي صلى الله عليه وسلم في العريش يحرسه. وشهد كذلك غزوة تبوك، وتصدق بماله كله دون أن يُبقي لأهله شيئاً، حتى سأله النبي صلى الله عليه وسلم: 'ما أبقيت لأهلك؟'، فأجاب: 'أبقيت لهم الله ورسوله'.

الفصل الخامس

خليفة رسول الله — السقيفة وحروب الردة



♦ ١. خطبة الخلافة الأولى

حين بويع أبو بكر خليفة في سقيفة بني ساعدة، وقف في الناس خطيباً بكلماتٍ صارت مرجعاً لكل حاكمٍ عادل بعده: 'أيها الناس، إني قد وُلّيت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنتُ فأعينوني، وإن أسأتُ فقوموني... أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم'.

♦ ٢. 'لو منعوني عناقاً': حروب الردة

ما إن توفي النبي صلى الله عليه وسلم حتى ارتدت قبائل كثيرة، ومنعت الزكاة وهي تُقرّ بالصلاة. فرأى بعض الصحابة أن يُترك هؤلاء، لكن أبا بكر وقف موقفاً لا يلين، وقال: 'والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعها'. فتراجع عمر أمام حزم هذا الموقف، وقال: 'فعرفت أنه الحق'.

عن النبي صلى الله عليه وسلم:

'أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله'

متفق عليه، وهو الأصل الذي استند إليه أبو بكر في حروب الردة

♦ ٣. جمع القرآن

في أعقاب حروب الردة، استشهد عددٌ كبير من حفظة القرآن في معركة اليمامة، فاقترح عمر جمع القرآن، فتردد أبو بكر: 'كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم؟' ثم اقتنع بالمصلحة وكلف زيد بن ثابت بهذه المهمة الجليلة.

الفصل السادس مواقف خالدة من حياته



♦ ١. جيش أسامة : لا أحلّ لواءً عقده رسول الله صلى الله عليه وسلم'

قبيل وفاته بأيام قليلة، كان النبي صلى الله عليه وسلم قد جهّز جيشاً بقيادة أسامة بن زيد لغزو الروم. وما إن تولى أبو بكر الخلافة حتى ارتدت قبائل كثيرة، فأشار كبار الصحابة أن يُبقي الجيش لحماية المدينة. لكن أبا بكر رفض، وقال: 'والله لا أحلّ لواءً عقده رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولو أن الطير تخطفنا والكلاب تُهارشنا حول المدينة'.

♦ ٢. الخليفة الذي يخدم عجوزاً لا تعرفه

لاحظ عمر أن رجلاً يخرج كل فجر يحمل شيئاً على كتفه، فتتبعه فوجده يخدم عجوزاً عمياء مقعدة دون أن يُعرّفها بنفسه. فعلم أنه أبو بكر، فقال: 'ثكلتك أمك يا عمر، ومن يقوى على ما يقوى عليه أبو بكر؟'.

♦ ٣. 'ليتني كنت شجرة تُعضد'

رغم بلوغه أعلى المراتب بشهادة النبي صلى الله عليه وسلم له بالجنة، ظل أبو بكر شديد الخوف من الحساب، حتى قال: 'يا ليتني كنت شجرة تُعضد ثم تؤكل ولا أكون بشراً'.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾

سورة المؤمنين، الآية ٦٠

الفصل السابع

الرحيل الهادي — زهده ووفاته



♦ ١. الخليفة الذي أراد أن يستمر تاجراً

حين تولى أبو بكر الخلافة، خرج في الصباح كعادته إلى السوق يتجر، فقابله عمر وأبو عبيدة وقالاه: إن شؤون الخلافة لن تدعك تتفرغ للتجارة. ولما احتُضر، استدعى عائشة وأمرها أن تُحصي ما أخذه من بيت المال، فوجدته أقل من كفايته، فأمر أن تُردَّ أرض وخادمٌ إلى بيت المال.

♦ ٢. آخر وصية

حين اشتد به المرض، استشار كبار الصحابة في استخلاف عمر، فقال أبو بكر: 'اللهم إني أردت بذلك خيرهم لهم، ولم آلهم نُصْحاً'.

♦ ٣. الرحيل

توفي أبو بكر الصديق بعد نحو سنتين وأشهر من خلافته، ودُفن إلى جانب النبي صلى الله عليه وسلم في حجرة عائشة.

«ما راجعت أبا بكر في أمرٍ فوجدته إلا وقد سبقني إليه بخيرٍ منه» — من كلام عمر بن الخطاب في صاحبه.



بهذا يُختم الباب الأول من هذا الكتاب، لينتقل القارئ إلى سيرة صاحبه في الخلافة والعدل: عمر بن الخطاب رضي الله عنهما.



الباب الثاني

عمر الفاروق

من جاهلية قاسية، إلى فاروقٍ عادل، إلى شهادةٍ في المحراب



الفصل الأول قبل الفجر — عمر في الجاهلية



◆ ١. النسب والنشأة

هو عمر بن الخطاب بن نُفيل بن عبد العزى، من بني عدي، أحد بطون قريش التي تولت السفارة في الجاهلية. وُلد بعد عام الفيل بثلاث عشرة سنة تقريباً. وقد نشأ عمر تحت يد أبٍ عُرِف بالشدة والقسوة، الخطاب بن نُفيل، فكان يُشغَل ابنه في رعي الإبل بمنطقة يقال لها الضجنان. وحين تذكّر عمر ذلك لاحقاً في أوج عزّه خليفةً للمسلمين، كان يقول: 'كنت أرعى إبل الخطاب بالضجنان في مدرعة صوف، وكان فظاً غليظاً يتعبنى إن أنا نسيت، ويضربني إن قصّرت ثم أصبحت لا إله غيره بيني وبينه، فسبحان مَنْ يُغَيِّر ولا يتغيّر'.

وفي هذا الاعتراف مفتاحٌ نفسي لفهم عمر: أن قسوة الأب صنعت في الابن جلدًا مبكرًا على المشقة، وأن الشدة التي مارسها لاحقاً على نفسه وعلى ولاته لم تكن غريبة عليه، بل كانت اللغة الوحيدة التي أتقنها منذ الصغر.

◆ ٢. مكانته بين قريش: المصارع والسفير والكاتب

اشتهر عمر بين شباب قريش بالفروسية والمصارعة، وامتحن التجارة، فكانت له رحلاته إلى الشام واليمن. والأهم أنه كان يعرف القراءة والكتابة، وهي مَلَكَةٌ نادرة حينها. ولأجل هذا الجمع بين الفصاحة والحزم والمعرفة بالأنساب، كانت قريش تختاره سفيراً لها.

وهذا الدور — دور السفير الذي يحمل كلام قومه ويثبت أمام الغرباء — تدريبٌ مبكر، في خدمة الباطل حينها، سينقله عمر لاحقاً كاملاً إلى خدمة الحق، دون أن تتغير طبيعته، بل وجهتها فقط.

◆ ٣. ظلمة لم يمحها إلا الإسلام: مأساة الوأد

من أشد المشاهد إيلاًماً في سيرة عمر قبل الإسلام، ما رواه بنفسه بعد أن أسلم، حين سُئِلَ عن أشد ما فعله في جاهليته، فبكى، وحَدَّث أنه دفن ابنته وهي حية، وأنها كانت تمسح التراب عن

لحيته دون أن تعلم أنه يحفر لها قبرها. هذه الرواية ليست هنا للتشهير، بل لأنها مفتاح فهم عمق التحول اللاحق.

◆ ٤. الخصم الأول للدعوة

حين ظهرت الدعوة، كان عمر من أشد المتصدين لها، عن يقينٍ خاطئ بأن هذا الدين يهدد نظام قريش. آذى مَنْ أسلم من قومه، ولم يكن يرى في ذلك تناقضاً. وهذه الحدة نفسها، حين انقلبت لاحقاً، صارت درعاً للمستضعفين بدل أن تكون سوطاً عليهم.

الفصل الثاني عاصفة في قلب حجري — إسلامه



♦ ١. الرجل قبل اللحظة

خرج عمر ذلك الصباح ومعه سيفه لا ليجادل بل ليقتل. أخبروه أن محمداً وأصحابه مجتمعون في دار عند الصفا، فمضى إليهم بخطى مَن حسم أمره.

♦ ٢. اللحظة التي تنشق فيها النفس على نفسها

سأله رجلٌ من بني زهرة: 'أين تغدو يا عمر؟'، فقال: 'أريد أن أقتل محمداً'. فقال له: 'وكيف تأمن بني هاشم وبني زهرة إن قتلته؟'. فقال عمر: 'ما أراك إلا قد صبأت وتركت دينك'. فقال الرجل: 'أفلا أدلك على العجب؟ إن أختك وختنك قد صبا وتركا دينك الذي أنت عليه'. اتجه إلى بيت أخته فاطمة، فلما دخل، وضرب، وأدمى ثم رأى الدم على وجهها، حدث ما لم يُخطط له: فتور مفاجئ.

طلب أن يقرأ الصحيفة التي فيها آيات من سورة طه.

﴿طه (١) مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (٢) إِلَّا تَذَكُّرٌ لِّمَن يَخْشَى﴾

سورة طه، الآيات ١-٣ — الآيات التي كسرت يقين عمر الجاهلي

♦ ٣. من الغضب إلى الاستسلام

مضى إلى دار الأرقم، فأذن له النبي صلى الله عليه وسلم بالدخول، وأخذ بمجامع ثوبه: 'ما جاء بك يا ابن الخطاب؟'. فقال: 'جئت لأشهد أن لا إله إلا الله، وأنت رسول الله'. فكبر أهل الدار تكبيرة سُمعت في شعاب مكة.

«اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك: بأبي جهل، أو بعمر بن الخطاب» — فاستجاب الله بعمر.

الفصل الثالث

من الظل إلى الصدارة — حياته مع النبي صلى الله عليه وسلم



◆ ١. الهجرة العننية

هاجر المسلمون متسللين، إلا عمر. تقلّد سيفه، وانتصب في نادي قريش، وقال: 'من أراد أن تثكله أمه، ويؤيّم ولده، ويُرمل زوجته، فليلقني وراء هذا الوادي'. لم يخرج أحد خلفه.

◆ ٢. بدر: أول اختبار للولاء المطلق

حين أُسر سبعون من المشركين ببدر، أشار أبو بكر بالفداء رحمةً، ورأى عمر أن يُقتلوا. حين نزل الوحي مؤيداً الرحمة، بكى النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر، وقال عمر: 'ما نجا منا إلا من قلّ'، وتراجع بكل تسليم.

◆ ٣. أحد والخندق

في أحد ثبت عمر وسط فوضى إشاعة مقتل النبي صلى الله عليه وسلم. وفي الخندق عمل بيده لا يكتفي بالإشراف، وحزن أشد الحزن حين فاتته صلاة العصر يوماً من شدة القتال.

◆ ٤. الحديبية

حين قبل النبي صلى الله عليه وسلم شروطاً بدت مجحفة، اعترض عمر: 'ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ فعلاً نُعطى الدّينية في ديننا؟'. فأجابه: 'إني رسول الله، ولن يُضيعني الله أبداً'. وظل عمر بعدها يصوم ويتصدق ويعتق مخافة كلامه ذلك.

◆ ٥. فتح مكة وتبوك

شهد فتح مكة، وفي تبوك تصدق بنصف ماله ظاناً أنه سيسبق أبا بكر، فلما علم أن أبا بكر تصدق بماله كله وقال 'أبقيت لهم الله ورسوله'، قال عمر: 'لا أسابقك إلى شيء أبداً'.

◆ ٦. الحجر الأسود

قَبْلَ الحِجْرِ وَقَالَ: 'إِنِّي أَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، وَلَوْلَا أَنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْبَلُكَ مَا قَبَّلْتُكَ'، دَرَسَ خَالِدٌ فِي اتِّبَاعِ السَّنَةِ بِمَا تَقْدِيسِ لِلْأَشْيَاءِ لِدَاتِهَا.

الفصل الرابع

الأمانة الثقيلة — وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وتولي الخلافة



♦ ١. الإنكار الذي لا يحتمله عقل

حين توفي النبي صلى الله عليه وسلم، أنكر عمر الخبر بعنف. لكن أبا بكر قال بهدوء: 'من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت'.

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾

سورة آل عمران، الآية ١٤٤ — الآية التي تلاها أبو بكر فأفاقت الأمة من صدمتها

يقول عمر: 'فعمرت، حتى وقعت إلى الأرض'.

♦ ٢. سقيفة بني ساعدة

انتهى اجتماع الأنصار والمهاجرين بمبايعة أبي بكر، وكان عمر أول من بايع، تاركاً لنفسه دور الحارس الأمين لدولة وليدة.

♦ ٣. عهد إلى عمر

حين حضرت أبا بكر الوفاة، استشار في استخلاف عمر، فقال: 'إنما كانت شدته لأنني كنت ليئناً، فإذا أفضى إليه الأمر ترك كثيراً مما كان عليه'.

«إنما كانت شدته لأنني كنت ليئناً» — أبو بكر الصديق، في وصف فراسته بصاحبه.

الفصل الخامس خليفة الأرض المفتوحة — الفتوح والبناء



♦ ١. اتساع لم تحتمله الخيمة الواحدة

اتسعت رقعة الدولة الإسلامية اتساعاً لم يشهد التاريخ مثله: سقطت المدائن، وانكسر جيش الروم في اليرموك، وفتحت الشام ومصر. وكان عمر يدير أعظم دولة في زمانه من بيت من طين.

♦ ٢. دخول القدس

اشترط أهل القدس ألا يُسلموا المدينة إلا لعمر نفسه، فقدم متواضعاً على بعير يتناوب ركوبه مع خادمه، ورفض استبدال ثوبه المرقع: 'إن كنا نطلب العزة بغير الإسلام، أذلنا الله'.

♦ ٣. الدواوين والقضاء

أنشأ نظام الدواوين لتوزيع العطاء، وفصل القضاء عن الولاية، وكتب لأبي موسى الأشعري رسالته الشهيرة: 'البينة على من ادعى، واليمين على من أنكر'.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾

سورة النحل، الآية ٩٠ — وكان عمر يتلوها على ولاته تذكيراً بأصل الحكم

♦ ٤. التقويم الهجري والأمصار

بمشورة علي بن أبي طالب، جعل مبدأ التقويم من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم. وأسّس الكوفة والبصرة والفسطاط، وحفر خليج أمير المؤمنين ليصل النيل بالبحر الأحمر زمن المجاعة.

مَنْ اتسعت له الدنيا كما اتسعت لعمر، ثم لم يتغيّر قلبه قيد أنملة، فذلك هو الزهد الحقيقي.

الفصل السادس

راعي الرعية — عدله وتواضعه



◆ ١. كيس الدقيق

كان يطوف ليلاً متخفياً. سمع بكاء أطفالٍ من خيمة، فوجد امرأةً تُقَلِّب حجارةً في قدرٍ فارغ. حمل كيس دقيقٍ على ظهره بنفسه، وقال لخادمه: 'أنت تحمل عني وزري يوم القيامة؟'.

◆ ٢. 'من أين لك هذا؟'

كان يُحاسب ولاته بمقارنة أموالهم قبل الولاية وبعدها. وحين ضرب ابن عمرو بن العاص رجلاً قبطياً دون حق، أعطى القبطي السوط ليقترض بنفسه، وقال لعمرو: 'متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟'.

◆ ٣. 'لو عثرت بغلة في العراق'

قال: 'لو أن بغلةً عثرت في العراق لخشيت أن يسألني الله عنها: لِمَ لم تُمَهِّد لها الطريق يا عمر؟'، تعبيراً عن مسؤولية لا تعرف حدوداً.

◆ ٤. عام الرمادة

حرّم على نفسه اللحم والسمن زمن المجاعة حتى يحيا كما يحيا الناس، وقال: 'وكيف أرثي للرعية إن لم أذق ما يذوقون؟'.

الفصل السابع مواقف خالدة من حياته



◆ ١. الشيخ اليهودي المتسوّل

مرّ عمر بشيخ كبير من أهل الذمة يتسوّل، فأعطاه من ماله، وأمر بإسقاط الجزية عنه، وقال: 'ما أنصفناه إن أكلنا شببته ثم تركناه عند هرمه'.

◆ ٢. الراوي الذي طبّق ما روى على نفسه

روى عمر بنفسه عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله: 'لا تُطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبده، فقولوا: عبد الله ورسوله'. وما يستحق التأمل أن عمر طبّقه على نفسه؛ فحين بالغ بعض الشعراء في الثناء عليه هو شخصياً، كان يزرهم بشدة.

عن النبي صلى الله عليه وسلم:

لا تُطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبده، فقولوا: عبد الله ورسوله'

رواه البخاري عن عمر بن الخطاب، عن النبي صلى الله عليه وسلم

◆ ٣. أمير المؤمنين في ثوبٍ مرّقع

حين دخل الشام فاتحاً، وجده كبار القادة يمشي بنفسه يقود بعيره، وثوبه مرّقع. فقال بعضهم: هذه هي الهيبة الحقيقية لا زخرف القصور.

الفصل الثامن

الطعنة في المحراب — الاستشهاد



♦ ١. فجر لم يكتمل

طعنه أبو لؤلؤة المجوشي في صلاة الفجر ست طعنات. سقط عمر، وأول ما فكّر فيه لم يكن نفسه، بل استمرار الصلاة.

♦ ٢. حوار مع الموت

لما عرف أن قاتله عبدٌ أعجمي لا صاحب دين، قال: 'الحمد لله الذي لم يجعل منيَّتي بيد رجل يسجد لله سجدة'.

♦ ٣. الشورى السادسة

رفض أن يستخلف رجلاً بعينه، وحصر الأمر في ستة: عثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وسعد، وعبد الرحمن بن عوف، وانعقد الاختيار على عثمان. وأوصى بالدفن إلى جانب صاحبيه إن أذنت عائشة، وقال لابنه: 'قل: يستأذن عمر بن الخطاب 'لا' أمير المؤمنين'.

خاتمة الباب الثاني بين الصديق والفاروق



جمع الله لهذا الدين في صاحبيه ما لا يجتمع عادةً في رجلٍ واحد: رقة أبي بكر التي بنت الثقة، وصلابة عمر التي حمت الحدود. وفي الأبواب القادمة، يكمل الكتاب مسيرة الخلافة الراشدة مع صاحبيهما: ذي النورين عثمان بن عفان، وأبي الحسن علي بن أبي طالب، رضي الله عن الجميع.





الباب الثالث

عثمان بن عفان

ذو النورين — الحياء الذي هابته الملائكة، والصبر الذي حقن الدماء



الفصل الأول الحياة المجسد — نشأته وإسلامه



♦ ١. تاجرٌ من بني أمية معروف بالحياة

هو عثمان بن عفان بن أبي العاص، من بني أمية، أحد أعرق بطون قريش نسباً وأكثرها مالاً. كان تاجراً موسراً، حسن الوجه، رقيق الخلق، وقد اشتهر بصفة نادرة جعلته يتفرد بين الصحابة جميعاً: الحياة الشديد الذي بلغ من عمقه أن قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم يوماً: 'ألا أستحي من رجلٍ تستحي منه الملائكة؟'.

عن النبي صلى الله عليه وسلم:

'ألا أستحي من رجلٍ تستحي منه الملائكة؟'

رواه مسلم، قاله النبي صلى الله عليه وسلم في عثمان بن عفان

♦ ٢. من السابقين الأولين

أسلم عثمان في وقتٍ مبكر جداً من الدعوة، بعد أن دعاه صديقه أبو بكر الصديق. وقد آذته قريش لإسلامه، حتى هاجر هجرتين: إلى الحبشة ثم إلى المدينة، فكان بذلك، كما وصفه النبي صلى الله عليه وسلم، 'أول من هاجر بأهله بعد لوط عليه السلام'.

الفصل الثاني ذو النورين — الكرم والفداء



◆ ١. لَقَبْتُ لَمْ يُمْنَحْ لغيره

تزوج عثمان من رقية بنت النبي صلى الله عليه وسلم، فلما توفيت، زوجه من أختها أم كلثوم، فصار الصحابي الوحيد الذي جمع الزواج من ابنتي نبي، ولُقِبَ لأجل ذلك 'ذا النورين'.

◆ ٢. جيش العسرة: حين يشتري رجل الجنة بماله

حين دعا النبي صلى الله عليه وسلم إلى تجهيز جيش تبوك، تصدق عثمان بثلاثمائة بعير وألف دينار، حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم: 'ما ضرَّ عثمان ما عمل بعد اليوم'.

عن النبي صلى الله عليه وسلم:
'من جهّز جيش العسرة فله الجنة'، فجهّزه عثمان
رواه البخاري عن عبد الرحمن بن سمرة

◆ ٣. بئر رومة: أول وقفٍ للماء في الإسلام

اشترى عثمان بئر رومة من يهودي، ووقفها سبيلاً للمسلمين، فكانت أول وقفٍ خيري للماء في تاريخ الإسلام.

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾
سورة البقرة، الآية ٢٤٥ — ويُروى نزولها مرتبطاً بحض النبي ﷺ على شراء بئر رومة

الفصل الثالث

بيعة الرضوان وجمع المصحف



◆ ١. سفير النبي صلى الله عليه وسلم إلى مكة

في صلح الحديبية، أرسل النبي صلى الله عليه وسلم عثمان سفيراً إلى مكة، فاحتُبس هناك، وشاع خبرٌ كاذب بأنه قُتل. فدعا النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه إلى مبايعته على القتال، وبايع عن عثمان بيده اليمنى، وقال: 'هذه يد عثمان'.

◆ ٢. المصحف الإمام: توحيد كلمة الأمة

حين ظهرت اختلافات في قراءة القرآن بين الأمصار، جمع عثمان كبار الصحابة، وكلّف زيد بن ثابت بنسخ المصحف على حرفٍ واحد، وأرسل نسخاً موحدة إلى الأمصار، فسُمّي 'المصحف الإمام'.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾

سورة الحجر، الآية ٩ — وقد كان عثمان سبباً من أسباب حفظ الله لكتابه موحداً بين الأمصار

الفصل الرابع مواقف خالدة من حياته



◆ ١. الذي يختم القرآن في ركعة

عُرف عثمان بشدة تعلقه بالقرآن، حتى قيل إنه كان يختمه في ركعة واحدة في بعض الأحيان، وكان قوله: 'لو طهرت قلوبنا ما شبعنا من كلام ربنا'.

◆ ٢. عتق لا ينقطع

استمر عثمان على عادة عتق الرقاب كل يوم جمعة، حتى أعتق في يوم واحد بضعاً وعشرين رقبة.

◆ ٣. منع الصحابة من الدفاع عنه

حين اشتد الحصار حول داره، منع كبار الصحابة من قتال المحاصرين دفاعاً عنه، وقال: 'مَنْ كَفَّ يده فهو خيرٌ ممن بسطها'.

الفصل الخامس

الباني الصامت — عمرانه وشوراه



◆ ١. ترده قبل قبول الأمانة

حين استقر رأي الشورى على عثمان، ظل صامتاً هنيهة ثم قبل بعد أن أخذ عليه عبد الرحمن بن عوف العهد أن يعمل بكتاب الله وسنة نبيه وسيرة الشيخين من قبله.

◆ ٢. أول أسطول وأول شهيدة في البحر

بشر النبي صلى الله عليه وسلم أم حرام بنت ملحان بأنها ستكون من أول جيش يركب البحر، وفي خلافة عثمان تحقق ذلك في غزوة قبرص، وتوفيت أم حرام هناك.

عن النبي صلى الله عليه وسلم:

'أول جيش من أمتي يغزون البحر قد أوجبوا'، فقالت أم حرام: أنا فيهم يا رسول الله؟ قال: أنت فيهم

رواه البخاري ومسلم

◆ ٣. توسعة المسجد النبوي

وسّع عثمان المسجد النبوي توسعةً كبرى تجاوزت توسعة عمر، وبناه بالحجارة المنقوشة وخشب الساج.

الفصل السادس الفتنة والحصار — الاستشهاد



◆ ١. اتساعٌ جديد وفتنٌ ناشئة

واصل عثمان توسيع الدولة، لكن مع طول خلافته بدأت تظهر فتنٌ روج لها عبد الله بن سبأ، الذي سعى للتفريق بين المسلمين.

◆ ٢. لا أخلع قميصاً ألبسنيه الله'

تجمع الغوغاء حول داره يطالبونه بالتنازل عن الخلافة، فرفض حقناً للدماء، وقال: 'لا أخلع قميصاً ألبسنيه الله'.

◆ ٣. مصحفٌ ملطخٌ بالدم

طال الحصار حتى تسوَّروا عليه وهو يقرأ القرآن، فقتل وقطرات دمه تسقط على المصحف عند قوله تعالى:

﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

سورة البقرة، الآية ١٣٧ — الآية التي كانت مفتوحة أمام عثمان لحظة استشهاده

تنبيه: هذه القصة، على شهرتها الواسعة في كتب الرقائق والمواعظ، ضعيفة جداً من حيث الإسناد عند المحققين من أهل الحديث. وقد أثرنا ذكرها لشهرتها ولما تحملته من معنى تربوي جميل، لا لأنها ثابتة تاريخياً بسندٍ صحيح.



الباب الرابع

علي بن أبي طالب

تربية النبوة، وفروسية الإسلام، وحكمة ختمها السيف



الفصل الأول في حجر النبوة — النشأة والإسلام



♦ ١. الصبي الذي تربى في بيت النبي صلى الله عليه وسلم

هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب، ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم. حين اشتد الفقر بمكة، تكفل النبي صلى الله عليه وسلم بتربيته، فنشأ في كنف الوحي، فكان أول الصبيان إسلاماً على الإطلاق.

♦ ٢. ليلة الفراش: تضحية بالروح

حين أجمعت قريش على قتل النبي صلى الله عليه وسلم في فراشه ليلة الهجرة، نام علي مكانه متوشحاً ببرده، وهو يعلم أن السيوف قد تهوي عليه.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾

سورة البقرة، الآية ٢٠٧ — نزلت، بحسب ما ذكره المفسرون، في علي ليلة الفراش

الفصل الثاني أسد الله — فروسيته في الغزوات



◆ ١. مبارز الإسلام الأول

برز علي فارساً لا يُشَقُّ له غبار، وقتل عمرو بن عبد ودّ في مبارزة حاسمة يوم الخندق. وفي خيبر أعطاه النبي صلى الله عليه وسلم الراية وقال: "لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، يفتح الله على يديه".

◆ ٢. بيت الزهراء: زواج متواضع رغم المكانة

تزوج علي من فاطمة الزهراء، وكان بيتهما من أشد بيوت الصحابة تواضعاً، حتى إن فراشهما كان إهاب كبش.

الفصل الثالث

أقضاكم علي — العلم والحكمة



♦ ١. باب مدينة العلم

عُرف علي بعمق فهمه في القضاء، حتى قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: 'أقضاكم علي'.

عن النبي صلى الله عليه وسلم:

'أقضاكم علي'

رواه أحمد، ضمن حديث المفاضلة بين الصحابة في العلوم المختلفة

♦ ٢. الزهد في زمن الخلافة

ظل علي على زهده بعد الخلافة، يرقّع ثوبه بيده، ويقول: 'ألا وإن إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه، ومن طعمه بفُرصيه'.

الفصل الرابع سنوات الفتنة — الجمل وصفين



◆ ١. ميراث الفتنة

حين بويع علي عقب مقتل عثمان، ورث مطالبةً بالقصاص من قتلته، طالبت به عائشة وطلحة والزبير من جهة، ومعاوية من جهةٍ أخرى. ورأى علي أن استقرار الدولة أولاً.

◆ ٢. موقعة الجمل وصفين: حين يقتتل الصحابة

أفضى الخلاف إلى معركة الجمل ثم موقعة صفين التي انتهت بالتحكيم، وتمخض عنه ظهور الخوارج الذين قاتلهم في النهروان.

﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾

سورة الحجرات، الآية ٩ — الأصل الذي سعى علي لتطبيقه حتى في أحلك ساعات الفتنة

الفصل الخامس مواقف خالدة من حياته



◆ ١. درعه عند اليهودي: حين يخسر الخليفة القضية

فقد علي درعاً، فوجده عند يهودي، فرفعه إلى القاضي شريح، فحكم شريح بالدرع لليهودي لعدم ثبوت البينة الكافية! فأسلم اليهودي إعجاباً بهذا العدل.

تنبيه: هذه القصة، على شهرتها، ضعيفة جداً من حيث الإسناد عند المحققين، بل حكم عليها بعضهم بالبطلان. وقد ذكرت لشهرتها ومعناها التربوي، لا لثبوتها.

◆ ٢. كنس بيت المال بيده

كان يوزع كل ما في بيت المال ثم يأمر بكنسه ورشه بالماء، ويصلي فيه ركعتين.

◆ ٣. وصيته الأخيرة لابنيه

أوصى ابنيه: 'أوصيكما بتقوى الله، وألا تبغيا الدنيا وإن بغتكما... وكونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً'.

الفصل السادس

حكمة الحاكم — قراراته الأخيرة



◆ ١. تردده في قبول البيعة

حين قُتل عثمان، تردد علي في قبول البيعة، وقال: 'دعوني والتمسوا غيري'.

◆ ٢. إرسال ابن عباس لمناظرة الخوارج

أرسل ابن عباس يحاور الخوارج بالحجة قبل القتال، فرجع كثيرٌ منهم.

◆ ٣. تفقّده للأسواق بنفسه

كعادة سلفه عمر، كان يخرج بنفسه يتفقد أسواق الكوفة، وينهى عن الغش.

الفصل السابع السيف المسموم — الاستشهاد



◆ ١. فجر آخر في محراب الكوفة

كما استشهد عمر، استشهد علي بالطريقة نفسها: ضربه ابن ملجم بسيف مسموم وهو خارجٌ لصلاة الفجر.

◆ ٢. العفو في آخر لحظة

أوصى ألا يُمثلوا بقاتله، وأن يقتصوا منه ضربةً واحدة فقط: 'إن أعش فأنا أولى بدمي، وإن أمت فاضربوه ضربةً بضربة، ولا تمثلوا بالرجل'.

خاتمة الخلفاء الراشدين الأربعة في ميزان التاريخ



حين نضع سير الخلفاء الراشدين الأربعة جنباً إلى جنب، يتجلى أمرٌ عظيم في تدبير الله لهذا الدين: أنه لم يعتمد على نمط واحد من الرجال، بل جمع أربعة طبائع متميزة كل التمايز.

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾
سورة الفتح، الآية ٢٩ — وصف قرآني جامع لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أجمعين



وتستمر السيرة الآن مع الأربعة الباقين من العشرة المبشرين بالجنة: سعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو عبيدة بن الجراح، رضي الله عنهم أجمعين.



الباب الخامس

طلحة بن عبيد الله

طلحة الخير، طلحة الفياض — الذي وقى النبي بيده يوم أُحد



الفصل الأول بشارة الوحي — إسلامه المبكر



◆ ١. تاجر عاد من الشام بخبر عجيب

هو طلحة بن عبيد الله بن عثمان، من بني تيم، قبيلة أبي بكر الصديق نفسها. يُروى أن طلحة كان في رحلة تجارية إلى الشام قبيل البعثة، فسأله راهب: هل ظهر فيكم رجل يُقال له أحمد؟ فعاد طلحة إلى مكة وقلبه مشغول بهذا الخبر، فوجد أبا بكر يدعو الناس سراً، فأسلم على يديه دون تردد.

◆ ٢. الأذى في سبيل العقيدة

رُبط طلحة مع أبي بكر في حبل واحد وعُذِّباً معاً، فسُمِّيَا 'القرينين'. ولم يثنه الأذى عن دينه، بل ازداد تعلقاً بصحبة النبي صلى الله عليه وسلم.

الفصل الثاني طلحة الخير — يوم أحد



◆ ١. اليد التي تلقت السهام

في أحد، حين انكشف المسلمون عن النبي صلى الله عليه وسلم، كان طلحة من القلة التي ثبتت حوله، يتلقى السهام بيده بدل أن تصل إليه، حتى شلت أصابعه وأصابته بضعة وثلاثون جراحة.

عن النبي صلى الله عليه وسلم:
'من أحب أن ينظر إلى رجل يمشي على الأرض وقد قضى نحبه، فليُنظر إلى طلحة بن عبيد الله،' وقال أيضاً: 'أوجب طلحة'

رواه الترمذي بسند حسن، وأصله في البخاري

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ﴾

سورة الأحزاب، الآية ٢٣

الفصل الثالث

طلحة الفياض — كرمه وتجارته



◆ ١. تجارة تتحول إلى صدقة

قدمت له تجارة عظيمة من العراق، فوزّعها بكاملها على فقراء المدينة في يومٍ واحد، حتى قالت زوجته إنها رأت الدراهم مكوّمة كأنها كتبان الرمل، فما جاء المساء إلا وقد فرّقها كلها.

◆ ٢. عطاء لا ينقطع في السلم كما في الحرب

قيل فيه: 'كان يطعم حتى يجوع، ويلبس أهله حتى يعرى'. فجمع بذلك بين فداءٍ بالجسد يوم أحد، وفداءٍ بالمال في سائر حياته.

الفصل الرابع

نهاية فوضى الجمل

❖ ❖ ❖

❖ ١. الخروج المتردد

بعد مقتل عثمان، خرج طلحة مع عائشة والزبير يطالبون بالقصاص، فيما عُرف بموقعة الجمل بينهم وبين جيش علي.

❖ ٢. سهم لا يُعرف قاصده

أصاب طلحة سهمٌ طائش في رجله، فنزف حتى مات، ولم يُعرف يقيناً مَنْ رماه، وإن رجّحت بعض الروايات أنه كان من طرف مروان بن الحكم مستغلاً فوضى المعركة.



الباب السادس

الزبير بن العوام

حواري النبي، وأول من سل سيفاً في الإسلام



الفصل الأول ابن العمة — النشأة والإسلام



♦ ١. نسب قريب ودمٌ حامٍ

هو الزبير بن العوام بن خويلد، وأمه صفية بنت عبد المطلب عمة النبي صلى الله عليه وسلم. أسلم وهو دون الخامسة عشرة من عمره، فكان من أوائل مَنْ أسلم حادثةً في السن وسبقاً في الإيمان.

♦ ٢. أول سيفٍ يُسلّ دفاعاً عن الإسلام

حين شاعت إشاعة كاذبة بمقتل النبي صلى الله عليه وسلم، سلّ الزبير سيفه وخرج يبحث عمن أشاعها، فدعا له النبي صلى الله عليه وسلم بخير، فكان بذلك أول من سلّ سيفاً في سبيل الإسلام.

الفصل الثاني الحواريّ — شهادة النبي له



◆ ١. 'إن لكل نبيّ حوارياً، وحواريّ الزبير'

حين ندب النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه لاستطلاع خبر جيش لقريش، انتدب الزبير نفسه مرتين متتاليتين، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: 'إن لكل نبيّ حوارياً، وحواريّ الزبير'.

عن النبي صلى الله عليه وسلم:
'إن لكل نبيّ حوارياً، وحواريّ الزبير'
رواه البخاري ومسلم

◆ ٢. فارس في كل ميدان

شهد الزبير بدماءً وأحداً والخندق، وشارك في اقتحام حصن بابلين المنيع في فتح مصر.

الفصل الثالث ثروة تورّع قبل أن تُحصى



◆ ١. تاجرٌ لا يحبس ماله

جمع الزبير ثروة واسعة، لكنه كان يُقرض الناس بسخاء دون شروطٍ مرهقة.

◆ ٢. وصيةٌ تُسدّد بها ديون الآخرين

أوصى أن تُسدّد ديونه من ماله، فوجد أن ثلث تركته كان مخصصاً لسداد ديونٍ استدانها عمداً ليُقرض بها محتاجين آخرين.

الفصل الرابع الانسحاب الأخير من الجمل



◆ ١. تذكير يهز القلب

ذكره علي بحديث نبوي قديم: 'أتذكر يوم قال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم: أتجبه؟ فقلت: وما يمنعني؟ فقال: أما إنك ستقاتله وأنت له ظالم؟'. فانسحب الزبير فوراً: 'والله لا أقاتلك بعد هذا اليوم'.

◆ ٢. غيلة بعد الانسحاب

تبعه عمرو بن جرموز فقتله غيلةً، فغضب علي حين بُشِّر بذلك: 'بشّر قاتل ابن صفية بالنار'.



الباب السابع

سعد بن أبي وقاص

أول سهم يُرمى في سبيل الله، وفتح القادسية



الفصل الأول خال النبي — إسلامه المبكر



◆ ١. من السابقين إلى الإسلام

هو سعد بن أبي وقاص، من بني زهرة، وأمه من أحوال النبي صلى الله عليه وسلم. أسلم في السابعة عشرة من عمره، وقال: 'لقد رأيتني وأنا ثلث الإسلام.'

◆ ٢. أول سهم في سبيل الله

يُعدّ سعد أول من رمى بسهم في سبيل الله. وفي أحد، كان النبي صلى الله عليه وسلم يناوله السهام ويقول: 'ارم، فذاك أبي وأمي'، الشهادة الوحيدة التي جمع فيها النبي صلى الله عليه وسلم أبويه فداءً لصحابي.

عن النبي صلى الله عليه وسلم:
'ارم، فذاك أبي وأمي'
رواه البخاري ومسلم

الفصل الثاني فاتح العراق — يوم القادسية



◆ ١. القائد الذي اختاره عمر لأخطر جبهة

اختار عمر سعداً لقيادة مواجهة فارس، فكانت القادسية من أعظم المعارك الفاصلة، وانفتح العراق أمام الفتح الإسلامي.

◆ ٢. المدائن ومسجد الكوفة

دخل سعد المدائن وصلى في إيوان كسرى ثم اختط مدينة الكوفة وبنى مسجدها الجامع.

الفصل الثالث

دعوة مستجابة وورع نادر

❖ ❖ ❖

❖ ١. 'اللهم استجب لسعد إذا دعاك'

شهد له النبي صلى الله عليه وسلم بأن دعاءه مستجاب. ولما اشتكاه أهل الكوفة زوراً، دعا عليهم، فأصابتهم دعوته.

❖ ٢. الاعتزال في الفتنة

حين نشبت الفتنة بين علي ومعاوية، اعتزل سعد القتال، وقال: 'لا أقاتل حتى تأتوني بسيفٍ له عينان يفرّق بين المؤمن والكافر'. فكان آخر العشرة وفاءً.



الباب الثامن

سعيد بن زيد

زوج أخت الفاروق، وصاحب الدعوة المستجابة على الظالم



الفصل الأول بيت آمن قبل عمر



◆ ١. إسلام سبق إسلام عمر

هو سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفيل، ابن عم عمر وزوج أخته فاطمة. أسلما قبل عمر، وحين عرف عمر بإسلامهما ضربهما، فكانت تلك اللحظة شرارة إسلامه هو.

◆ ٢. من العشرة المبشرين رغم فوات بدر

غاب سعيد عن بدر في مهمة استطلاع، فضرب له النبي صلى الله عليه وسلم بسهم كاملٍ من الغنيمة.

الفصل الثاني دعوة على الظلم لا على الأشخاص



♦ ١. أروى بنت أويس وأرض المدينة

ادّعت أروى بنت أويس أن سعيداً اقتطع من أرضها، فقال: 'أتراني أخذت من أرضها شيئاً بعد أن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من أخذ شبراً من الأرض بغير حقه طُوقه يوم القيامة من سبع أرضين؟'، ودعا عليها إن كانت كاذبة.

عن النبي صلى الله عليه وسلم:
'من أخذ شبراً من الأرض بغير حقه طُوقه يوم القيامة من سبع أرضين'

رواه البخاري ومسلم عن سعيد بن زيد نفسه

♦ ٢. استجابة لم تتأخر

عَمِيت أروى ثم سقطت في بئرٍ داخل دارها فماتت، فتحقق ما دعا به سعيد.



الباب التاسع

عبد الرحمن بن عوف

التاجر الذي رفض نصف مال أخيه، وأمين الشورى



الفصل الأول

'دلّوني على السوق'



◆ ١. الهجرتان وصفر اليدين

هو عبد الرحمن بن عوف، من بني زهرة، هاجر الهجرتين تاركاً تجارته وأمواله، فوصل المدينة صفر اليدين.

◆ ٢. الأخوة التي رفض فيها نصف المال

حين آخى النبي صلى الله عليه وسلم بينه وبين سعد بن الربيع، عرض سعد نصف ماله وإحدى زوجتيه، فرفض عبد الرحمن، وقال: 'بارك الله لك في أهلك ومالك، دلّوني على السوق'.

الفصل الثاني التاجر الذي لا تُلهيه تجارته



◆ ١. قافلة تهز المدينة

قدمت له قافلة من سبعمائة راحلة، فارتجت المدينة من صوتها، فتصدق بها كاملة لله.

◆ ٢. خشيته من فتنة الغنى

بكى وهو ينظر إلى مائدة طعام، وتذكر مصعب بن عمير الذي لم يوجد له كفن كافٍ، وقال: 'فقد خشينا أن تكون حسناتنا عُجلت لنا'.

﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾

سورة آل عمران، الآية ٩٢

الفصل الثالث أمين الشورى



◆ ١. مهمة اختيار الخليفة

تنازل عبد الرحمن عن حقه في الترشح، وقضى ثلاثة أيام يستطلع رأي الأمة حتى استقر الرأي على عثمان.

◆ ٢. زهد في المنصب رغم القدرة عليه

كان بإمكانه أن يكون الخليفة، لكنه آثر دور الحكم النزيه على دور الحاكم.



الباب العاشر

أبو عبيدة بن الجراح

أمين هذه الأمة، وفاتح الشام



الفصل الأول أمين الأمة



◆ ١. لقب من فم النبي صلى الله عليه وسلم

هو عامر بن عبد الله، الشهير بأبي عبيدة بن الجراح. قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: 'لكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح'.

عن النبي صلى الله عليه وسلم:
'لكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح'
رواه البخاري ومسلم

◆ ٢. قتل أبيه دفاعاً عن الدين

التقى أبو عبيدة بأبيه المشرك في بدر، فقاتله حتى قتله دفاعاً عن دين الله.

﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ﴾
سورة المجادلة، الآية ٢٢

الفصل الثاني فاتح الشام



◆ ١. القيادة بعد عزل خالد

عزل عمر خالد بن الوليد عن قيادة جيوش الشام، ووصل إلى أبا عبيدة، فتقبل خالد ذلك بتسليم نادر.

◆ ٢. فتوحات متتالية

تتابعت فتوحات الشام: دمشق وحمص وبلعك وأنطاكية، وعُرف بعدله مع أهل البلاد المفتوحة.

الفصل الثالث طاعون عمواس



◆ ١. الثبات وسط الوباء

أمره عمر بالخروج من أرض الطاعون، فردّ أبو عبيدة بأنه لا يترك جنوده يواجهون الموت وحده.

◆ ٢. خطبته الأخيرة ووفاته

قال: 'إن هذا الطاعون رحمةٌ من ربكم، ودعوة نبيكم صلى الله عليه وسلم، وموت الصالحين قبلكم'. فأصابه الطاعون فمات به وفياً لكلمته.

خاتمة الكتاب

العشرة المبشرون بالجنة — عقدٌ كامل



بهذا يكتمل عقد العشرة المبشرين بالجنة كاملاً في هذا الكتاب: أربعة حملوا الخلافة، وستة آخرون حملوا الدين كلٌّ بطريقته. عشرة رجال، بعشر شخصياتٍ متميزة، جمعهم جميعاً دينٌ واحد ومصيرٌ واحد: شهادة النبي صلى الله عليه وسلم لهم بالجنة وهم أحياء يمشون بين الناس.

عن النبي صلى الله عليه وسلم:

'أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة، وطلحة في الجنة، والزبير في الجنة، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة، وسعد بن أبي وقاص في الجنة، وسعيد بن زيد في الجنة، وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة'

رواه الترمذي وأبو داود، حديث العشرة المبشرين بالجنة

وتبقى الحكمة التي افتتحنا بها هذا الكتاب هي خاتمته أيضاً: أن القلوب جميعاً، مهما اختلفت طبائعها وتنوعت مسالكها، تبقى بين يدي القدر.



ثم بحمد الله — سِير العشرة المبشرين بالجنة، رضي الله عنهم أجمعين

المصادر والمراجع التي استُقيت منها مادة هذا الكتاب



◆ ١. كتب الحديث الشريف

صحيح البخاري، للإمام محمد بن إسماعيل البخاري — ومنه: حديث تصديق أبي بكر بالإسراء والمعراج، وحديث 'أوجب طلحة' (وأصله فيه)، وحديث بشارة أم حرام بنت ملحان بالغزو البحري، وحديث لا تُطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، وحديث 'أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح'.

صحيح مسلم، للإمام مسلم بن الحجاج — ومنه: حديث دعوة سعيد بن زيد على أروى بنت أويس، وحديث حياء عثمان، وأحاديث فضائل جملة من العشرة المبشرين بالجنة.

سنن الترمذي وسنن أبي داود — ومنه: حديث العشرة المبشرين بالجنة بأسمائهم، وتفصيل حديث 'أوجب طلحة' بسند حسن الترمذي.

المستدرک على الصحيحين، للهاكم النيسابوري، وحلية الأولياء، لأبي نعيم الأصفهاني — وقد استُقيت منهما بعض الروايات المشهورة في فضائل الصحابة، وبعضها أقل ثبوتاً من غيره كما نُبه عليه في موضعه.

◆ ٢. كتب التفسير

تفسير الطبري (جامع البيان)، وتفسير ابن كثير — لبيان أسباب نزول الآيات المذكورة في الكتاب، كآيات سورة التوبة في الهجرة، وآية البقرة في استشهاد عثمان، وآية الأحزاب في طلحة، وآية البقرة في علي ليلة الفراش.

◆ ٣. كتب السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي

السيرة النبوية، لابن هشام — المصدر الأساس لقصة إسلام عمر، وهجرة النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر، وغزوات بدر وأحد والخندق والحديبية.

تاريخ الرسل والملوك (تاريخ الطبري) — المصدر الرئيس لأحداث الردة، والفتوحات، ومقتل عثمان، وموقعي الجمل وصفين.

البداية والنهاية، لابن كثير، والكامل في التاريخ، لابن الأثير — لتفصيل أحداث الخلافة الراشدة، ورواية تذكير علي للزبير قبيل انسحابه من الجمل.

الطبقات الكبرى، لابن سعد — لتفاصيل النسب والنشأة وأخبار الفتوح والعمران.

◆ ٤. كتب التراجم ومناقب الصحابة

الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلاني، وأسد الغابة، لابن الأثير، وسير أعلام النبلاء، للذهبي — لتراجم العشرة المبشرين بالجنة ومناقبهم، وقد اعتمد عليها أيضاً في تقييم بعض الروايات سنداً كقصة 'علي والدرع عند اليهودي' وقصة 'عثمان ومصحف الدم' اللتين نُبِهَ على ضعفهما في موضعهما.

تنبيه ختامي: هذا كتاب أدبي تربوي لا كتاب حديث متخصص، فقد اجتهدنا في التحقق من أصل الروايات المشهورة المنقولة فيه، ونَبَّهنا صراحةً على ما وقفنا على ضعفه منها، لكن العهدة في تفاصيل الأسانيد الدقيقة تبقى على المصادر الأصلية المذكورة أعلاه، فهي المرجع لمن أراد التوسع والتحقق.